الفصل الأول

نشأته والعصر الذى ظهر فيه

ولد جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هجرية)، فى «سعد آباد» إحدى القرى التابعة لخطة (كنر) من أعمال (كابل) عاصمة الأفغان، ووالده السيد صفتر من سادات (كنر) الحسينية، ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور، ويرتقى إلى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، فالمترجم من السلالة النبوية الطاهرة، ويجرى فى عروقه الدم العربى الأصيل، ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى.

وقد زعم بعض المتشككين أو المغرضين أن جمال الدين إيرانى لا أفغانى، وهو زعم مختلق يراد منه التشكيك فى أفغانية السيد العظيم، ويدحضه ما اتفق عليه رواة من معاصريه بأنه أفغانى الموطن وتسميته طيلة حياته «جمال الدين الأفغانى» وما قاله رحمه الله عن نسبه، فقد قرر أنه أفغانى صميم، قال مرة «لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولمت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفتنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى ترابها»، وقال مرة أخرى «إنى اضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض».

هذا إلى ما عرفه أقرب الناس إليه مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والأمير شكيب أرسلان، والشيخ عبد القادر المغربى وما سمعوه منه من أنه أفغانى بحت عربى بالسلالة النبوية التى ينتسب إليها.

ولعل هذا الشك الذى أثاره بعض الإيرانيين راجع إلى التفاخر بالعظماء والتنازع بين الناس على نسبته إليهم.

ولأسرة جمال الدين منزلة عالية فى بلاد الأفغان، لنسبها الشريف، ولمقامها

الاجتماعى والسياسى، إذ كانت لها الإمارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية، تستقل بالحكم فيه، إلى أن نزع الإمارة منها «دوست محمد خان» أمير الأفغان وقتئذ، وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة (كابل)، وانتقل المترجم بانتقال أبيه إليها، وهو بعد فى الثامنة من عمره، فعنى أبوه بتربيته وتعليمه، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء فى بلاده.

وكانت مخايل الذكاء، وقوة الفطرة، وتوقد القريحة تبدو عليه منذ صباه، فتعلم اللغة العربية، والأفغانية، والفارسية، وتلقى علوم الدين، والتاريخ، والمنطق، والفلسفة، والرياضيات، فاستوفى حظه من هذه العلوم، على أيدى أساتذة من أهل تلك البلاد، على الطريقة المألوفة فى الكتب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره.

ثم سافر إلى الهند، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية، فنضج فكره، واتسعت مداركه، وكان بطبعه ميالاً إلى الرحلات، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات، فعرض له وهو فى الهند أن يؤدى فريضة الحج، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة يتنقل فى البلاد، ويتعرف أحوالها وعادات أهلها، حتى وافى مكة المكرمة، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م)، وأدى الفريضة.

بدء حياته العملية

ثم عاد إلى بلاد الأفغان، وانتظم فى خدمة الحكومة على عهد الأمير (دوست محمد خان) المتقدم ذكره، وكان أول عمل له مرافقته إياه فى حملة حربية جردها لفتح (هراة)، إحدى مدن الأفغان، وليس يخفى أن النشأة الحربية تعود صاحبها الشجاعة، واقتحام المخاطر، ومن هنا تبدو صفة من الصفات العالية، التى امتاز بها جمال الدين، وهى الشجاعة، فإن من يخوض غمار القتال فى بدء حياته تألف نفسه الجرأة والإقدام، وخاصة إذا كان بفطرته شجاعًا.

ففى نشأة المترجم الأولى، وفى الدور الأول من حياته، تستطيع أن تتعرف

أخلاقه، والعناصر التى تكونت منها شخصيته، فقد نشأ كما رأيت من بيت مجيد، ازدان بشرف النسب، واعتز بالإمارة، والسيادة، والحكم، زمنًا ما، وتربى فى مهاد العز، فى كنف أبيه ورعايته فكان للوراثة والنشأة الأولى، أثرهما فيما طبع عليه من عزة النفس، التى كانت من أخص صفاته، ولازمته طول حياته، وكان للحرب التى خاضها أثرها أيضا فيما اكتسبه من الأخلاق الحربية.

فالوراثة، والنشأة، والتربية، والمرحلة الأولى فى الحياة العملية، ترسم لنا جانبًا من شخصية جمال الدين الأفغانى.

سار المترجم إذن فى جيش «دوست محمد خان» لفتح (هراة)، ولازمه مدة الحصار، إلى أن توفى الأمير، وفتحت المدينة بعد حصار طويل، وتقلد الإمارة من بعده ولى عهده (شير على خان) سنة ١٨٦٤ م (١٢٨٠ هـ).

ثم وقع الخلف بين الأمير الجديد وإخوته، إذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم، فانضم السيد جمال الدين إلى «محمد أعظم» أحد الإخوة الثلاثة، لما توسمه فيه من الخير، واستعرت نار الحرب الداخلية، فكانت الغلبة لمحمد أعظم، وانتهت إليه امارة الأفغان، فعظمت منزلة المترجم عنده، وأحله محل الوزير الأول، وكاد بحسن تدبيره يستتب الأمر للأمير، ولكن الحرب الداخلية، ما لبثت أن تجددت، إذ كان (شير على) لا يفتأ يسعى لاسترجاع سلطته، وكان الإنجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسهم، فأيدوه وناصروه، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم، وأغدق (شير على) الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير محمد أعظم «فبيعت أمانات ونقضت عهود، وجددت خيانات» كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم، وغلبة شير على، وخلص له الملك.

بقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسه الأمير بسوء؛ «احترامًا لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوى» وهنا أيضا تبدو لك مكانة المترجم، ومنزلته بين قومه، وهو بعد فى المرحلة الأولى من حياته العامة، ويتجلى استعداده للاضطلاع بعظائم المهام، والتطلع إلى جلائل الأعمال، فهو يناصر أميرًا يتوسم فيه الخير، ويعمل على تثبيته فى الإمارة، ويشيد دولة يكون له فيها

مقام الوزير ارول، ثم لا تلبث أعاصير السياسة والدسائس الإنجليزية أن تعصف بالعرش الذى أقامه، فيدال من أميره، ويغلب على أمره، ويلوذ بإيران لكى لا يقع فى قبضة عدوه، ثم يموت بها، أما المترجم فيبقى فى عاصمة الإمارة، ولا يهاب بطش الأمير المنتصر، ولا يتملقه أو يسعى إلى نيل رضاه، ولا ينقلب على عقبيه، كما يفعل الكثيرون من طلاب المنافع، بل بقى عظيمًا فى محنته، ثابتًا فى هزيمته، وتلك لعمرى ظواهر عظمة النفس، ورباطة الجأش، وقوة الجنان.

وهذه المرحلة كان لها أثرها فى الاتجاه السياسى للسيد جمال الدين، فقد رأيت ما بذلته السياسة الإنجليزية لتفريق الكلمة، ودس الدسائس فى بلاد الأفغان، وإشعال نار الفتن الداخلية بها، واصطناعها الأولياء من بين أمرائها، ولامراء فى أن هذه الأحداث قد كشفت للمترجم عن مطامع الإنجليز، وأساليبهم فى الدس والتفريق، وغرست فى فؤاده روح العداء للسياسة البريطانية خاصة، والمطامع الاستعمارية الأوروبية عامة، وقد لازمه هذا الكره طول حياته، وكان له مبدأ راسخًا يصدر عنه فى أعماله وآرائه وحركاته السياسية.

رحيله إلى الهند

لم ينفك الأمير (شير على) يدبر المكايد للسيد جمال الدين، ويحتال للغدر به، فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان، ليجد جوًا صالحًا للعمل، فاستأذنه فى الحج، فأذن له، فسار إلى الهند سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٥ هـ)، وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار، لما عرف عنه من العلم والحكمة، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه، ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية عداؤه لسياستها، وما يحدثه مجيئه إلى الهند من إثارة روح الهياج فى النفوس، وخاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن على الرغم من إخماد ثورة سنة ١٨٥٧، فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقته الحكومة بالحفاوة والإكرام، ولكنها لم تسمح له بطول الإقامة فى بلادها، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون إليه، يقتبسون من نور علمه وحكمته، يستمعون إلى أحاديثه وما فيها من غذاء للعقل والروح، والحث على الأنفة وعزة

النفس، فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم، ولم تأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم من مريديه وقصاده، إلا على عين من رجالها، فلم يقم هناك طويلاً، ثم أنزلته الحكومة إحدى سفنها فأقلته إلى السويس.

مجيئه مصر لأول مرة

جاء مصر لأول مرة أوائل سنة ١٨٧٠ م (أواخر سنة ١٢٨٦ هـ)، ولم يكن يقصد طول الإقامة بها، لأنه إنما جاء ووجهته الحجاز، فما أن سمع الناس بمقدمه حتى اتجهت إليه أنظار النابهين من أهل العلم، وتردد هو على الأزهر، واتصل به كثير من الطلبة، فآنسوا فيه روحًا تفيض معرفة وحكمة، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية، والفلسفية، والكلامية، وقرأ لهم شرح (الإظهار)[١] فى البيت الذى نزل به بخان الخليلى، وأقام بمصر أربعين يوما، ثم تحول عزمه عن الحجاز، وسافر إلى الآستانة (استنبول).

قال الشيخ محمد عبده عن تتلمذه لجمال الدين: «وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس إلى التلقى عنه كذلك، وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصميمة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة. فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش[٢] فكان يقول لى: إن الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة، فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ولا شىء من الجهل بمحمود لديه، إلا ما يسميه بعض الناس علمًا وليس

---

(١) متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه البركوى.

(٢) خال والد الأستاذ الإمام وكان يدارسه القرآن والعلم.

فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلها الإضرار بالناس»[١].

العصر الذى ظهر فيه

أخذ النضج السياسى لجمال الدين الأفغانى يتكون حوالى منتصف القرن التاسع عشر، وكان لحالة الشرق وقتئذ أثرها فى هذا التكوين، فالاستعمار الأوروبى فى عنفوانه وجبروته، والأمم الشرقية إما خاضعة لهذا الاستعمار أو كانت هدفه ومقصده، ففرنسا تحتل الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وترنو ببصرها إلى البلدان العربية المجاورة.

وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تغزو أفريقية، كانت بريطانيا تعمل على أن تطأ أقدامها جنوب جزيرة العرب فاحتلت (عدن) سنة ١٨٣٩، ثم أخذت تبسط نفوذها وشرورها على مر السنين فى المناطق القريبة منها والبعيدة عنها بحيث لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى مدت شراكها إلى الكثير من الأصقاع الجنوبية من شبه الجزيرة العربية.

وكانت تحتل الهند وتضطهد الأهلين فيها، وقد ثاروا عليها سنة ١٨٥٧ للتحرر من استعمارها، ولكنها أخمدت ثورتهم بالحديد والنار سنة ١٨٥٩.

وكانت تدبر المكايد لبلاد الأفغان – موطن جمال الدين – وتعمل على غزوها وضمها إلى مستعمراتها وباءت بالفشل المرة تلو الأخرى، ولكنها كانت ماضية فى تحقيق أطماعها واصطناع الأعوان والعملاء فيها.

وهولنده تحتل معظم جزائر الهند الشرقية (أندونيسيا) وتبسط على أهلها سلطانها الغاشم.

ومصر تكتنفها المطامع الاستعمارية وتلاحقها، فمنذ أن أخفقت بريطانيا فى حملة فريزر عليها سنة ١٨٠٧ فى مطلع القرن التاسع عشر وفشلت وقتئذ فى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٥.

احتلالها، أخذت تترقب الفرص لتعاود تحقيق أطماعها الاستعمارية فيها، وتنافست هى وفرنسا فى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى عليها وانتزعت فرنسا من مصر سنة ١٨٥٤ امتياز حفر قناة السويس، فكان ذلك غزوًا اقتصاديًا لها، واشتد التنافس بينها وبين بريطانيا على التدخل فى شئونها.

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين كان عصر طغيان الإستعمار الأوروبى فى بلاد الشرق عامة، وكان من شأنه أن يؤجج فى النفوس الحساسة مشاعر بغضه وكراهيته والسخط على المستعمرين والدعوة إلى محاربتهم ومقاومتهم.

وكانت الحالة الداخلية لبلاد الشرق بالغة منتهى السوء، فملوكها وأمراؤها يحكمونها حكمًا استبداديًا، ولا يعترفون لشعوبهم بحقوقهم السياسية والمدنية، ولا يريدون أن يتخلوا عن سلطانهم المطلق القائم على الأهواء والشهوات، والنظم الداخلية للحكم قد استشرى فيها الفساد، والجهالة متفشية بين المواطنين، والأمية غالبة عليهم، والعقائد الدينية قد شابتها الأباطيل والخرافات، والجمود مستحوذ على العلماء والخواص، والأفكار مغلقة لا تنفذ إليها دعوة الحق أو التحرر من قيود التقاليد والأوهام.

فالاستعمار الخارجى. والاستبداد الداخلى. والتأخر والجمود الفكرى. والغفلة الشاملة، تلك هى العناصر الجوهرية لحالة الشرق فى منتصف القرن التاسع عشر.

هذه هى حالة الشرق عامة فى العصر الذى ظهر فيه جمال الدين الأفغانى وكان لها ولا ريب دخل أيما دخل فى تكوين شخصيته واتجاهاته؛ والتمهيد لكفاحه.

ولكن من الحق أن نقول إن هذه الحالة لم تحرك فى نفوس معاصريه ما حركت فى نفسه، فلماذا كانت العامل المؤثر فى تكوين شخصيته؟ لقد شعر بهذه الحالة كثير من معاصريه ولكنها لم تصل فى نفوسهم إلى درجة الثورة على الأوضاع القائمة مثل ما وصلت فى نفس جمال الدين، فما هو السر فى هذا الفارق؟ إن الجواب على هذا السؤال يبدو واضحًا جليًا إذا علمنا أن الأمم يظهر فيها حينا بعد حين زعماء يحملون لواء التحرير، أو الإصلاح والتجديد، ويمتازون

بناحية من نواحي العبقرية تؤهلهم للاضطلاع بأعباء هذه الرسالة، ولا شك أن جمال الدين الأفغاني قد امتاز على معاصريه بعبقريته ومواهبه، فكان واحدًا من هؤلاء العباقرة الذين حملوا رسالة النهضة والحرية وغرسوها في نفوس معاصريهم.

فالعصر الذي ظهر فيه جمال الدين الأفغاني، وظروفه وملابساته، وعبقريته ومواهبه، كان لها كلها الأثر المشترك في تكوين شخصيته والتمهيد لكفاحه ودعوته.

سفره إلى الآستانة وأثره فيها ثم رحيله عنها

وصل السيد جمال الدين إلى الآستانة، فلقي من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة وإكرامًا، إذ عرف له الصدر الأعظم «عالي باشا» مكانته، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ، العارفين بأقدار الرجال، فأقبل على السيد يحفه بالاحترام والرعاية، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية، وتناقلوا الثناء عليه، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضوًا في (مجلس المعارف)، فاضطلع بواجبه، وأشار بإصلاح مناهج التعليم.

ولكن آراءه لم تلق تأييدًا من زملائه، واستهدف لسخط شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي، إذ رأى في تلك الآراء ما يمس شيئًا من رزقه، فأضمر له السوء، وأرصد له العنت، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ (ديسمبر سنة ١٨٧٠ م)، فرغب إليه مدير دار الفنون أن يلقي فيها خطابًا للحث على الصناعات، فاعتذر بادئ بدء بضعفه في اللغة التركية، فألح عليه، فأنشأ خطابًا طويلًا كتبه قبل إلقائه، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية، فأقروه واستحسنوه.

وألقى السيد خطابه بدار الفنون، في جمع حاشد من ذوي العلم والمكانة، فنال استحسانهم، ولكن شيخ الإسلام اتخذ من بعض آرائه مغمزًا للنيل منه بغير حق،

ورميه بالزيغ فى عقيدته، واغتنمها فرصة للإيقاع به، وألب عليه الوعـاظ فى المساجد، وأوعز إليهم أن يذكروا كلامه محفوفا بالتفنيد والتنديد، فغضب السيد لمكيدة شيخ الإسلام، وطلب محاكمتـه، ولكن الحكومـة انحازت إلى شيخهـا، وأصدرت أمرها إلى المترجم بالرحيل عن الآستانة بضعة أشهر، حتى تسكن الخواطر، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إليها إن شاء، ففارقها مهضومًا حقه، ورغب إليه بعض مريديه أن يتحول إلى الديار المصرية، فعمل برأيهم وقصد إليها.

على أن جهاده فى تركيا قد ظهر أثره على مر السنين فليس يخفى أن (مدحت باشا) الملقب بأبى الأحرار فى تركيا قد وضع مشروع الدستور وأعلن القانون الأساسى (الدستور) سنة ١٨٧٦، حقًا إن البرلمان العثمانى الذى انتخب على أساسه لم يكد يجتمع حتى ألغى اجتماعه فى أوائل سنة ١٨٧٨ بأمر السلطان عبد الحميد، ونفى واضع الدستور مدحت باشا وعاد الحكم المطلق فى تركيا، على أن البذرة التى وضعها جمال الدين سنة ١٨٧٠ قد أثمرت على مدى السنين حتى حدث الانقلاب العثمانى وعاد الدستور سنة ١٩٠٨.